الحوار الديني وجدلية التنصير والدعوة لله

الأستاذة إدريس نعيمة
المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار

تمهيد

بعد أن تأكد وجود حوار مسيحي إسلامي وميادين للعمل المشترك من خلال القيم و المواضيع المشتركة، تأكد أيضا وجود تحديات مشتركة لكلا الطرفين، وإن كان ليس بنفس الصورة والشدة، فقد عمل الطرفان المنخرطان في عملية الحوار الديني على تحدي العوائق التاريخية العالقة في الأذهان ومحاربة التراكمات النفسية والجروح الأليمة، لكن الراهن يطرح تحديات كثيرة يقف على رأسها موضوع الإيمان، الإيمان بالله الخالق وعلاقاته بالمخلوقات، فهذا الإيمان يكاد يغيب، وإن لم يغب عند البعض فهو موجود بصورة متدهورة في قلب وذهن المؤمن، وهذا أكبر تحدي يجب أن يخوضه المؤمنون مسلمون ومسيحيون ضد كل التيارات المشككة والمادية والإلحادية أين كان مصدرها، من هنا كان الإتفاق على نقاط عمل مشتركة أهمها:

- تحدي المذاهب الفلسفية غير المؤمنة:

وفي الحقيقة هذا التحدي يطرح في العالمين المسيحي والإسلامي، وإن كان ليس بصورة مماثلة هذا يقودنا للحديث عن السياق التاريخي الذي أوجد مثل هذه الوضعية، وكما يقول بورمانس «عالم اليوم يطرح آلاف التحديات والتي من خلالها يجب أن نفهم أهمية أن نرد معا على: الماركسية والفلسفات التي تؤمن بالإنسان فقط (دون الإله خ/ ص) ،على التحليل النفسي، الوجودية والبنيوية التي تريد أن تقدم تفسيرا لكل شيء وإذا لزم الأمر أن تنتصب كقوى مطلقة واستبدادية»[1].

1. Maurice Borrmans : Chrétiens et musulmans ont-ils quelques chose à dire ou à faire ensemble dans le monde d'aujourd'hui? tome 4, 1978, p.37

إذن الوضع لم يعد بحاجة إلى أن تواجه الأديان بعضها بعضا، وإنما خطورة الوضع تستلزم أن تكون الأديان في جبهة واحدة -خاصة وأنها وُضعت غثها وسمينها في نفس سلة مهملات الماضي مع التخلف والظلامية- ضد كل هاته التيارات الملحدة والتي اتخذت أشكالا ومبررات مختلفة، لهذا يقول بورمانس «إننا مضطرين إلى الاعتراف بأن الوثنية تتولد دون توقف وأن الأصنام الجديدة أكثر قدرة من ذي قبل، والتي تضطهد مخلوقات الله أو تغريهم وتُضلّلهم باسم الدولة أو الجنس أو المال، باسم التقنية والإنتاجية أو الاستهلاك باسم شهرة جوفاء وحرية خاطئة أو سعادة مشوهة...»[1].

وهذا كلام صحيح، لكن الموضوعية تحتم القول بأن المسؤول عن هذه الوضعية بالدرجة الأولى هو الطرف المسيحي خاصة رجال الدين، لأن هذه الأصنام الجديدة وُلدت في الغرب المسيحي ثم صُدّرت عبر قنوات مختلفة لكل العالم، الذي يعاني منها اليوم، هذا جعل مسيحيا منصفا يقول:

«من بين الأسباب التي أرغمت الغرب المسيحي على احتضان هذه الطريقة للحوار بين الأديان، بالتحديد كان تحديا أُلقي على الأديان عموما والمسيحية خصوصا من قبل الفلسفة المادية، وبعبارة أخرى، من قبل الشيوعية العالمية. وقبل كل شيء الغرب المسيحي هو الذي قدّم ميلاد الماركسية»[2] من هنا جاء الإتفاق على ضرورة بعث وإحياء الإيمان بالله والقيم الروحية.

- العمل على تقوية الإيمان بالله:

تحدي المذاهب غير المؤمنة يكون بالعمل علة بعث الإيمان بالله مجددا وتقويته، ذكر البابا يوحنا بولس الثاني في لقائه بشباب المغرب في الدار البيضاء في 19 أغسطس 1985 ما يلي:

1. Maurice Borrmans, Op. Cit., p.29
2. Ziaul Hasan Faruqi : Chemins et moyens à prendre pour une entente et une réconciliation entre les religions, tome 6, 1980, p.15

«إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين ضروري اليوم أكثر منه في أي وقت مضى، فهو ينتج عن إخلاصنا لله ويفترض أن نعرف كيف نعترف بالله بواسطة الإيمان، وكيف نشهد له بالقول والفعل في عالم لا يزيد مع الأيام إلا دينونة، بل إلحادا في بعض الأحيان»[1].

وفعلا فطغيان الدنيوية كما ذكر البابا أمر لا يحتاج إلى تدليل والأسباب في ذلك متنوعة، والخطاب الديني يجب أن يتحمل مسؤوليته في حدوث ذلك، من تردّي القيم الروحية والإنسانية وسقوطها في المادية والإسفاف لدرجة تطليق الدين كلية. لهذا يتوجب على كل من يُدخل نفسه ضمن الإيمان (مسيحيا كان أو مسلما)، يتحمل مسؤوليته في النهوض بالدين ليسترد مكانته، بل ودوره في تنمية العقل والروح الإنسانية، لهذا قال البابا:

«علينا اليوم أن ندلي بشهادتنا للقيم الروحية التي يحتاج العالم إليها وفي مقدمتها إيماننا بالله، أليس الإيمان هو السؤال الأول الذي يشغل بال شاب من الشبان أول ما يفكر في معنى حياته، وفي الاختيارات الواجب اتخاذها لكي يصل إلى السعادة»[2].

وهو سؤال يطرح ضمن الوجود الإنساني الذي يختاره أي إنسان، سواء اختار التزام الإيمان أو اللاإيمان إذا صح التعبير.

ومن منطلق الإيمان بالله فإنه كما يقول بورمانس: «إن تقاليدنا الدينية ترتكز على هذه النقطة، على مصادر الإيمان والتي سنحاسب عليها يوم القيامة، إن المسيحي يتأمل بلا ملل عمق الالتزامات الأكثر صعوبة، هذه أقوال عيسى في إنجيل متّى: «لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريبا فأويتموني، عريانا فكسوتموني، مريضا فزرتموني، محبوسا فأتيتم إليّ، فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا ربُّ متى رأيناك جائعا

---

1. من كلمة قداسة البابا: إسلاميات-مسيحيات، العدد 111، روما، 1985، ص 3.
2. المرجع نفسه، ص3.

فأطعمناك، أو عطشانا فسقيناك... فيجيب الملك ويقول لهم الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم»[1]. (ويقارن هذا الكلام بما ورد في أحد الأحاديث حيث يقول خ/ ص) والمسلم أيضا لا يمكن أن ينسى الحديث القدسي أين قال الله للإنسان يوم الحساب: «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده! أما علمت لو أنك عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه! أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي...»[2][3].

بمعنى إذا كانت التقاليد الدينية المشتركة ملزمة ببعث القيم الأخلاقية فهي أولى ببعث قيمة الإيمان بالله أولا، وهذا يؤدي للحديث عن الدعوة أو التبشير في الأوساط غير المؤمنة « لأن المسيحية والإسلام في النهاية معنيان بتحديات العالم المعاصر أنهما يشتركان في سياق تاريخي، أين حضورهما -ورسالتهما- قد حوربا بنفس أسلحة الدعاية والظلم والضغط، فكل منهما على الأقل معارض من قبل المجتمعات الآلية لوقتنا هذا والتي تفضل صيغة «الأوامر» وفق نظام اجتماعي اقتصادي وسياسي، وتدفع إلى الخلف كل ما له علاقة بالأديان والأساطير»[4]. كما يقول علي مراد.

وفعلا فقد رمى الكثير بالدين في سلة مهملات التاريخ مع الخرافة والأساطير، وهذا يضاعف من المسؤولية (مسؤولية خلفاء الله وأبناؤه)

1. متى 25/ 35 - 40.

2. بعد الترجمة تم التأكد من صحة الحديث المذكور، رواه مسلم بكتاب: منهل الواردين شرح رياض الصالحين للدكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1977، ص549.

3. Maurice Borrmans : Chrétiens et musulmans ont-ils quelques chose ..., p.33

4. Ali Merad : Dialogue islamo chrétien : pour la recherche d'un langage commun, tome 1, 1975, p. 9

من المسلمين والمسيحيين، هذا يدفعنا للحديث عن إنسان اليوم وليس الملحد بالضرورة ولكن حتى الإنسان المتدين «إيمانه أصبح يشكل موضوعا لضغوطات متعددة من قبل القوى المختلفة للحداثة قوى بارعة ومركبة»[1].

هذا بالنسبة للإنسان المتدين، أما غير المتدين أو الذي يعطي للدين بُعدا ثانويا فقد أفرغ الدين من كل جوهره، واقتصر على بعض الطقوس التي يؤديها عند عقد القِران أو حضور مراسيم الدفن، هذا الإنسان ارتكب مظالم كثيرة، شر، ظلم، عدوان... رفض للحقيقة الإيمانية «بل إن القرآن انطلاقا من منظوره الواقعي لحركة التاريخ البشري يبين في أكثر من موضع أن (الأكثريات) البشرية تقف دائما بمواجهة الحق الذي لا تنتمي ليه إلا القلة الطليعية الرائدة، نظرا لما يتطلبه هذا الانتماء من جهد وتضحية وعطاء لا يحتملها الكثيرون»[2].

وهذا ما توضحه الآية الكريمة: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾[3] وهذه هي الحقيقة التي نعيشها وإن كانت حقيقة مؤسفة.

لكن أمام وضعية كهذه هل نستسلم لليأس ونترك الأمور على حالها وينزوي المؤمن بنفسه بعيدا عن الضغوطات التي تحيط به؟ يجيب بورمانس على مثل هذا التساؤل قائلا: «أمام هذه الحقيقة المؤلمة لمعصية الإنسان والجرائم التي يرتكبها في بني جنسه، المؤمنون الذين ننتمي إليهم لا يجب أن يستسلموا لليأس، مسلمون ومسيحيون نعلم وعن تجربة بأن الله يغفر أليس هو «الرحمن الرحيم» كما هو وارد في سورة الفاتحة، و«إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء» كما هو وارد في سفر الخروج الإصحاح 34/ 6. يكفينا فقط أن نكون شرفاء ونتعرف

1. Ziaul Hasan Faruqi : Chemins et moyens à prendre pour ..., p. 5

2. عماد الدين خليل: الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، إسلامية المعرفة، السنة 2، العدد 5، يوليو 1996، ص61.

3. سورة المؤمنون: الآية 70.

على عجزنا وأخطائنا، وبعد ذلك نطلب المغفرة لكي نجد عظمة المشروع الإلهي والطاقات حتى نضعه حيز التنفيذ والعمل»[1].

وهذا هو الحل العملي الأكثر صوابا، لأنه مهما كانت الوضعية مزرية وحتى يائسة لإنسان اليوم المشتت بين إيديولوجيات ومذاهب وإحباطات وعدميات الحداثة وما بعدها... فهذا ليس مبررا لترك الوضع على ما هو عليه، بل الضمير المؤمن يجب أن يستيقظ ويأخذ مسؤوليته «فالمؤمنون لابد عليهم كشف ما تعني العظمة الحقيقية للإنسان»[2] العظمة الحقيقية تكمن في الإيمان بالله، والبعد الأنطولوجي للإنسان والذي يتجاوز المفاهيم الحية والجامدة التي يقدمها البيولوجيون الماديون، كتفسير آلي أو فيزيوكيميائي، بعيدا عن تأثيرات الروح أو حتى الشعور والفكر، هذا يقودنا للحديث عن واجب وشرعية التبشير والدعوة لله سبحانه وتعالى والملابسات التي أثيرت حول هذا الموضوع الذي هو صميم بحثنا.

أولا- شرعية التبشير والدعوة لله:

بما أن الإيمان بالله مهدد يسير نحو التراجع، وبما أنه من الضروري بعث هذا الإيمان كما سبق وأن وضحنا، فإن هذا يستلزم القيام بعدة أعمال لتحقيق هذا الإيمان وبعثه في أكبر عدد ممكن من الناس، وعلى رأس هذه الأعمال القيام بواجب الدعوة بلغة إسلامية و التبشير بلغة مسيحية، هذا الموضوع كان محل نقاش بين الطرفين في سلسلة مواضيع الحوار الديني لأنه يحمل الكثير من الملابسات، وتجب هنا الإشارة بأن البعض من الرافضين للحوار من المسلمين كانت حجتهم أنه وجه من أوجه التبشير مثله مثل الإعانات الغذائية أو الصحية التي يقوم بها الصليب الأحمر.

ولكن لكي يكون الحوار أكثر موضوعية وعقلانية فيجب أن يرفض الدعوة إلى «توحيد الأديان» ويقبل الدعوة إلى الإيمان بالله من خلال الأشكال المختلفة للأديان الموجودة، فعلى المستوى الإسلامي المسيحي،

1. Maurice Borrmans : Chrétiens et musulmans ont-ils quelques chose ..., p. 36.
2. Ibid, p. 37.

كل من الديانتين تؤمن بالعالمية وأنها ليست قصرا على شعب معين كما هو الأمر في اليهودية، وبالتالي الدعوة أو التبشير من صميم عقيدتهما، من هنا لابد من نقاش كل لبس يحوم حول هاته المسألة.

لكن ألا تؤدي هاته الدعوة لله أو التبشير إلى الصدام من جديد، بحيث كل طرف يحاول أن يكون هو المسيطر وأتباعه هم الأكثر عددا وعدة؟

إن هذا هو المفترض أن يحدث على أساس أن كل طرف سيتعصب لدينه، وهو أمر أكثر من طبيعي، ولهذا على المتحاورين تقنين هذه المسألة -بدل التخلي عنها- وفق معطيات ترضي الطرفين.

ومن أهم الشروط التي التزم بها -نظريا- المسلمون والمسيحيون:

- أن لا تتم الدعوة في الأوساط المؤمنة للطرفين، بل يجب التوجه خاصة للملاحدة فهم بحاجة ماسة. - تجنب الإكراه- لأنه عديم الجدوى، وإنما على المؤمن عرض العقيدة والإيمان، والمتلقي حر ومسؤول عن اختياره في النهاية.

وهكذا كما يقول محمد الطالبي نجد من جديد ضرورة التبشير والدعوة كاملة غير منقوصة ولكن في صيغة أخرى تخلصت من أدران الجدل والدعاية التي لا تولد إلا العمى، فتصبح الدعوة بهذا المنظور أصلا تفتحا على الغير وانتباها إليه، تصبح بحثا متواصلا عن الحقيقة وذلك بالتعمق في القيم الدينية والإيمان بها إيمانا راسخا[1].

وهذا يحتاج إلى الكثير من الجهد والصبر، وقبل ذلك الإخلاص التام للعقيدة والإيمان الذي يجب أن يكون له صدى في سلوك المؤمن حتى يجد المصداقية والقبول لدعوته، لهذا رأى البعض «أن أحسن أشكال الدعوة إلى الإيمان هو شهادة نفس فازت في معركة الكمال الأخلاقي.

---

1. محمد الطالبي: الإسلام والحوار، إسلاميات مسيحيات، ترجمة الرشيد الغزي، العدد 4، 1978، ص 11.

فالدعوة بواسطة مثل هذه الشهادة هي أخصب دعوة وهي بالإضافة إلى ذلك الدعوة الوحيدة التي تتماشى مع عصرنا ويمكن لها أن تكون في غنى عن الالتجاء إلى الدعاية الدينية»[1].

إذن ضرورة الدعوة تفترض إيجاد وسائل جديدة غير التقليدية التي تعتمد الخطابة والكلمات الرنانة والترهيب من عذاب الله أو الترغيب في نعيمه... فهذه الأساليب لم تعد ناجعة، ولا تجد الآذان الصاغية خاصة عند الفئات المثقفة والمشبعة بعلوم الدنيا المعاصرة.

وعلى الداعي المسلم خاصة أن يضع نصب عينيه الآية الكريمة:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[2].

فإذا كان رسول الإسلام المؤيد بالوحي والنصر الإلهي قد خوطب وذكّر بهذه القاعدة، فالمؤمنون أولى بأن يضعوها نصب أعينهم عند القيام بواجب الدعوة.

ولكن رغم هذا الإتفاق بين مؤيدي الحوار هذا لا ينفي أن له دوافع خفية لا يمكن تغافلها أهمها اتخاذه وسيلة للتبشير.

ثانيا- الحوار الديني مطية للتبشير:

الدعوة إلى الحوار وخلق التآخي بين المسيحية والإسلام باعتبار كلاهما واجه ويواجه تحديات الإلحاد والمذاهب المادية وبالتالي عليهما التكفل معا ببعث الإيمان، لكن رغم هذه الرؤية -والتي تحمل الكثير من مشاعر النبل والإخلاص- توجد قناعة أخرى بعدم جدوى الحوار لأن له دوافع أخرى خفية، غير المعلنة، فالحوار وسيلة لضرب الإسلام بوسائل مغلّفة بالتسامح والأخوة... لهذا رفض البعض الدخول فيه أو تأييده، إنها فرضية حقيقة، لم تصدر عن تعصب أو جهل بعض المسلمين،

1. المرجع نفسه، ص 11.
2. سورة القصص: الآية 56.

بقدر ما تنّم عن إدراك ووعي بخلفيات وملابسات الحوار عند بعض المسيحيين على الأقل، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار الخلفية التاريخية للمحاور المسيحي، والتي كانت في أغلبها رافضة للإسلام وحاقدة عليه.

من هنا ربط البعض بين: الحوار والتبشير من جهة، والحوار والاستشراق من جهة أخرى، فما الحوار إلا قناة لتمرير عملية التبشير أو التنصير في أمان ولتمرير الدراسات الاستشراقية وتمكين مفاهيمها الخاطئة حول الإسلام في الذهنيات الإسلامية نفسها والتي كثير منها يناصر ويدير عملية الحوار؟ وطبعا ليس من الصعوبة أن نربط بين الهدف المشترك للتبشير والاستشراق رغم أنهما لا يحملان نفس الاسم.

هي طروحات متعددة يحملها الرافضون للحوار والتي تعني انعدام الثقة في نوايا المحاور المسيحي، وكذلك تعني أن الصراع والتدافع بين الطرفين ما زال سائدا كمفهوم وكواقع مجسّد لا سبيل لإنكاره، بالنظر في ذهنيات و سلوكات الخصم المسيحي وكذلك المسلم. من هنا كان العمل على وضع شروط تحد من التجاوزات.

وانطلاقا من هذا حاول المتحاورون دراسة هذه المسألة، أي تقنين قواعد الدعوة أو التبشير، وطبعا أشار المسلمون إلى التبشير الحاصل في الأوساط الإسلامية المستغل لمظاهر الضعف والجهل والفقر... واتفق الطرفان بأن لا تتم الدعوة في الأوساط المؤمنة وأن تتجه إلى الأوساط الملحدة.

اتفاق موضوعي وملتزم، لكن في الواقع تحدث أمور أخرى، إن الواقع مليء بالتناقضات والتجاوزات خاصة في العالم الإسلامي، أين المسلمون هم الأضعف، هم المستقبلون لدين وحضارة الغرب، المولعون بالتقليد، وإن كان التقليد لا يعني ضرورة التقليد الديني وتغيير العقيدة، لكن المبشرون يعملون على تحقيق ذلك مستخدمين وسائل عديدة بما في ذلك الحوار، وهو أمر لا ينكرونه، من ذلك ما ذكره جورافسكي عنهم

وعن علاقة التبشير بالحوار قائلا:

«وفي الحقيقة تبرز هنا إشكالية العلاقة أو الصلة بين مفهومي «الحوار» و«التبشير» وقد جرت في المجتمع الفاتيكاني الثاني محاولات لمقاومة النزعة الرامية إلى جعل الحوار ذا طابع إنجيلي، تبشيري، كما ورد في مقررات المجمع «في نشاط الكنيسة الإرسالي»... وفي بيان المجمع المذكور «في علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحية»، حيث وردت إشارات صريحة إلى أن مهمة الكنيسة الكاثوليكية (نظرا لكونها «معلمة الحق» كما ورد في التصريح) أن تبشر بالمسيح والمسيحية بين مختلف الشعوب وكان الموقف الرسمي للكنيسة الكاثوليكية واضحا تماما حول هذه المسألة ومحددا تماما «الحوار الحقيقي يشكل إنجيلية بحد ذاتها»[1]. والمتأمل في كلام هذا المسيحي المنصف، يدرك فعلا أن رفض الحوار من طرف المسلمين -لهذا السبب- رفض موضوعي له ما يبرره خاصة وأن المبشرين أعلنوا صراحة، أن الحوار يجب أن يخدم المسيحية أولاً وأخيراً، وإن لم يفلح المبشرون في تحويل المسلمين إلى مسيحيين، يطمعون إلى زعزعة الثقة بالإسلام، وتكوين مسلم ضعيف الإيمان، وهذا يعد نصرا بالنسبة لهم.

إن المتخوفين من الحوار لهم جان من الحق، خاصة فيها يخص التبشير الذي مازال يعمل وينشط فقي بلاد إسلامية كثيرة، خاصة بأندونيسيا وماليزيا وجنوب إفريقيا، فبعد فشل التبشير الكلاسيكي الصريح، نجح التبشير المقنّع والذي اتخذ من الحوار أحد الأقنعة إلى جانب أقنعة الطب والتعليم والرياضة... ومن هنا يمكن الرجوع بالحوار إلى ما قبل تصريح الفاتيكان الرسمي عام 1965م لأن الحوار بين المبشرين وبين أتباع الأديان غير المسيحيين أمر قديم، فإن عددا كبيرا من المؤسسات الغربية كالمدارس والنوادي وجمعيات الشبان والشابات وسائل لحوار -مستتر كثيرا أو قليلا- وغاية هذا الحوار

1. أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1966، ص170.

زعزعة العقائد على ألسنة أشخاص معروفين في قومهم. والحوار كالمعاهدات يظفر بالغنائم فيها من كان أقوى يدا أو أرفع صوتا[1]. ولتفادي المزالق والمخاطر المحتملة والمهددة للمجتمع الإسلامي جراء عمليات التبشير كان لا بد من وضع آليات جديدة.

ثالثا- الآليات الجديدة للكنيسة في التبشير (نصرة الحوار على التبشير):

لا يجب إجحاف حق المسيحيين المخلصين الذين يرفضون ممارسات التبشير المشوهة، و بعض جهود الكنيسة التي تحاول إصلاح سبل التبشير المسيحي ومنها اتخاذ الحوار وسيلة له، لأنه و كما يذكر أحد المسيحيين فإن «الحوار الذي أريد به أن يكون أسلوبا جديدا للتبشير المسيحي لم يعد كافيا على الإطلاق، حيث أن التحول الحاصل في توجه الكنيسة بالنسبة لموقفها من العالم، أدى بدوره إلى إعادة النظر فيما يخص مفهوم الرسالة المسيحية ومهام التبشير المسيحي في الشرق ويفضل اللاهوتيون الكاثوليك المعاصرون استعمال صيغة «الاهتداء إلى المسيح» بدلا من الصيغة القديمة «التحول إلى المسيحية»[2].

فالكنيسة غيّرت من إستراتيجيتها التبشيرية، بما أنها صرحت علنا بنصرة الحوار وعدم التبشير في الأوساط الإسلامية، وهذا يلزمها أدبيا وقانونيا لإعادة النظر في أمور كثيرة تخص التبشير، لهذا هي تفضل وترى أنه «على المبشر المعاصر أن لا يحصر اهتمامه بجذب أكبر عدد من الأتباع، و«بالنمو الكمي» للكنيسة فقط... بل عليه أن يدرس باهتمام شديد ودون نظرة مسبقة الآراء والتصورات والعقائد الدينية المحلية، التي يحتك بها في عمله الميداني، ساعيا بذلك إلى إيجاد لغة للتفاهم مع أصحابها و«طريقة للعيش المشترك»، وبهذا يُلقي على عاتق المبشر دور

1. مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الخامسة، 1973، ص257.

2. أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص ص 170-171.

القائد الروحي، المؤثر في تكوين الصفوة الفكرية المحلية. أما إلى أي مدى يمكن أن توجد القيم الإنجيلية في ثقافة هذه الصفوة، فإن ذلك يرتبط بالحد الذي يستطيع المسيحيون بلوغه من استيعاب وتمثل هذه أو تلك الثقافات غير الأوربية»[1].

هذا يذكرنا أيضا بعمل القديس بولس قديما الذي استوعب ثقافات مختلف الأمم التي يشّر بها لكن على حساب المبادئ المسيحية، لكن اليوم فالعكس هو المطلوب أي كيف يمكن أن تؤثر المسيحية الحالية في الثقافات والديانات الأخرى وذلك بتهجينها بالمبادئ الإنجيلية دون إلغائها تماما.

وعلى العموم فإنه لا يعترض على المبشر إذا أخذ دور القائد الروحي الباعث للإيمان والقيم، بل ما أحوج العصر والناس إلى رجال مؤمنين يهدفون إلى بعث القيم الروحية، لكن وجه الاعتراض على المبشر الذي يأخذ من الدين اسمه فقط، ويضرب عرض الحائط بكل القيم الدينية والإنسانية لتحقيق مصالح إيديولوجية سياسية حاقدة، بما في ذلك اتخاذه الحوار كمنهج للتبشير لا غير.

من الآثار الإيجابية أيضا بالنسبة للمسيحيين، أن الحوار لم يعد يقتصر على الكاثوليك فقط، بل امتد حتى إلى الأرثوذكس وهذا خفّف من العداوة الموجودة فكما يشير كوربان (Jean Corbon) في دراسته الاستقرائية التقييمية لعملية الحوار في العالم المسيحي من 1950-1980، أنه في الستينات، وبعد تصريح الفاتيكان الخاص بالأديان غير المسيحية، الكنائس الأرثوذكسية دخلت في عملية الحوار مثل كنيسة اليونان التي أصبحت تتوفر «ليس على مختصين في العلوم الإسلامية فقط، بل على مختصين في الحوار الإسلامي-المسيحي»[2].

ونفس التطور حدث كذلك في الكنيسة القبطية التي انطلقت بعد

1. المرجع نفسه، ص 171.

1. Jean Corbon : Le dialogue Islamo chrétien dans la conjoncture du monde chrétien de 1950-1980, Islamo-christiana, tome 11, 1985, p.180

سنة 1952 لإقامة علاقات أخوة بين مجموع المؤمنين رغم العراقيل.

وبهذا استنتج كوربون أن الحوار صاحبته تيارات تجديد داخل الكنيسة وعلى مستوى الذهنيات، فإنه المحبة منقذ جميع البشر مما يوجب التعامل مع المسلمين بالحسنى خاصة الذين يعيشون في نفس المكان مع المسيحيين[1] . هذا ما جعله يقول:

«خلال الثلاثين سنة الأخيرة يجب أن نسجل جدّية العقل والقلب التي بهما التزمت الكنائس الأسلوب الجدي للحوار الإسلامي-المسيحي»[2] ، ويقدم الدلائل المادية على التزام الطرف المسيحي وعلى الآثار الإيجابية الملموسة حيث يقول:

«فيما يخص الإعلام والتكوين، فإن داخل الكنائس نجد نفس جدية العقل والقلب التي ترجمت من خلال الكتب، المقالات، المحاضرات، الدورات المنعقدة التي تمكن المخلصين من المعرفة والإعجاب وحب المسلمين من خلال القيم الإنسانية والتاريخية والإيمانية للأمة الإسلامية»[3] .

ونفس التقييم الإيجابي خص به كوربون منهجية الحوار «فإنه لا توجد مناظرة أو دفاع عن الدين المسيحي، لكن يوجد كل ما يدفع لتطوير اللقاء الحاضر الاستماع للآخر، لفهمه كما يقول هو التحدث للآخر لكي يفهمني كما أنا»[4] .

هذا التطور على المستوى المنهجي سايره التطور على مستوى موضوعات الحوار التي لم تعد تتناول مواضيع إنسانية أو اجتماعية، وإنما ناقشت مواضيع لاهوتية حساسة دون أن تؤدي إلى اصطدامات جدلية وفي هذا المقام يذكر في تقييمه:

«على المستوى الكلامي، الموضوعات تتنوع حسب «مجموع أو عدد» الحوارات، ونفس جدية العقل والقلب تقود أحيانا إلى التأكيد على علاقة

1. Jean Corbon, Op. Cit., p.181
2. Ibid, p.182
3. Ibid, p.183
4. Ibid, p.182

«بالمساواة» كفرضية دائمة للقاء، ليس لكي ننتظر من هنا التفرقة الدينية -التي ستكون خداعا وغشا- ولكن ننتظر نداءا متبادلا لكي يتعرف كل طرف على الآخر كوجود حقيقي وليس نظري من خلال الكتب الدينية للآخر»[1]. هذا جعله يستنتج تطور الدراسات المقارنة خاصة التي ابتعدت عن مزايدات الماضي متجهة نحو موضوعية إيجابية حيث يقول: «الأساس بالمقارنة بدأ يتوضح، منذ قرون، قارنا بين مسيحية مثالية وإسلام مُعاش، وكرّد فعل مسيحيون قارنوا بين إسلام مثالي ومسيحية معاشة، ولكننا اليوم نرى بوضوح عُقم هذا النزاع، فيما يخص الجانب المسيحي على العموم نريد أن نعيش الحوار أكثر من المواجهة وجها لوجه بين اثنين ولكن نبحث عن شهادة متبادلة في مقابل الوجه الحقيقي»[2].

وهكذا يبدو كوربون المسيحي متفائلا بما حققه الحوار، مقتنعا بتحسن الأداء المسيحي والتزامه نحو المسلمين خاصة على المستوى الكنسي، أملا أن يتحقق ذلك بالنسبة للطرف المسلم.

لكن هل فعلا تغيرت النظرة السلبية للغرب نحو الإسلام والمسلمين؟

إن كوربون يؤكد هذا التغيير غير متجاهل للصعوبات والحقائق الموضوعية، فهو يذكر كمثال مشكل الهجرة، فالهجرات كما هو معلوم نحو أوربا الغربية وأمريكا ملاحظة، لطلاب أو عمال أو هجرة دائمة أو لجوء سياسي... ومن هؤلاء المهاجرين عدد معتبر من المسلمين من إفريقيا وآسيا خاصة، فهذه الظاهرة تقدم نفسها كمعطى جديد للحوار، وهذا يقود للتساؤل الذي يطرحه:

«في البلدان المستقبلة، كيف هي التصرفات والنظرة الجديدة للمسيحيين (أشخاصا أو كنائس) تجاه المهاجرين المسلمين؟

كذلك في البلدان المستقبلة ما هي التغيرات الجديدة على مستوى العلاقات بالنسبة للمؤمنين المسيحيين بعيدا عن الحكومة والإدارة

1. Jean Corbon, Op. Cit., p.182
2. Ibid.

والأحـزاب السياسـية والتجمعـات الإيديولوجيـة؟»[1].

وطبعـا للإجابة على مثل هذه التسـاؤلات بمصداقيـة، لابد من الخروج للواقـع والاتصـال بواقع المؤمنـين، وليس بواقع الحـوار والمحاضرات، حتى يكـون الحكم والتفاؤل بإيجابيـة الحوار حُكما صائبـا والتفاؤل صادقا.

هـذه نظرة مسـيحي قاد بدارسـة تقييمية للأهـداف التي حققهـا الجوار المسـيحي الإسـلامي، وبالموازاة زميـل له وهو الأب هنري تيسـيي قام بنفس الدراسـة، لكنـه غـير راض عـن النتائـج، وخاصة تجـاه محاوره المسـلم الذي لم يلتـزم بمقـررات الحـوار. فهو يلـوم كثـيرا الذهنيات المتعصبة والمسـؤولين الدينيـين في البلـدان الإسـلامية التـي تعرقـل الحـوار وتتناقـض أقوالهـا مـع تصرفاتهـا حيث يقـول مُقيّما:

«الحـوار الإسـلامي المسـيحي، بالنسـبة للجانـب المسـيحي فإنـه يرتكز عـلى نصـف قـرن مـن التحضـير، أمـا بالنسـبة للجانـب المسـلم فإنـه يتجـه في التيـار المضـاد، هـذا سـاعد كثـيرا في الحـط مـن قيمـة الملتقيات المسيحية الإسـلامية»[2]. ومـع ذلـك هـو لا ينكـر جهـود المؤيديـن للحـوار، لكنهـم للأسـف غير مُسـانَدين من طرف حكوماتهـم وهذا غير حقيقـي الحكومات الإسـلامية، نراهـا عكـس ذلـك خاصـة التي تعـاني ظاهـرة الإرهـاب فهي تدعـو للتسـامح والإخـاء الدينـي خاصـة مع المسـيحيين.

وقـد انعكـس عـدم التأييـد هـذا عـلى عـدم قـدرة المحـاور المسـلم للالتـزام بالتوصيـات التـي تخرج بهـا مؤتمـرات الحـوار ويقـدم مثـالا عـلى ذلـك:

«بعـد ملتقـى قرطبـة 1974، مسـيحيون أسـبان بحثـوا في مضمـون المقـرر المـدرسي لكـي يشـجبوا كل مـا يُجرّح في الإسـلام، المسـلمون الذين تعهـدوا القيـام بنفـس الشيء في الملتقـى، لم يقومـوا بـأي عمـل ملمـوس، عـلى العكـس، طبعـة المؤلفـات التي لا تحـترم، لا تاريـخ ولا مشـاعر الرفيق

1. Jean Corbon, Op. Cit., p.181
2. Henri Tessier : Pour un renouveau du dialogue musulman chrétien, tome 15, 1989, p.99

المسيحي مازالت منتشرة في البلدان المسلمة * -وهذا في رأيه- يعطي للمسيحي بعد عشر أو خمسة عشر سنة من اللقاءات بأنه أُحتيل عليه من طرف مشاركه» [1]، كما يذكر أن الحقوق التي تحصل عليها المسلمون مازال المسيحيون يطمحون إليها قائلا: «وأكدنا مثلا: حق المهاجرين في أوربا في أماكن العبادة التي يرغبونها كتحقيق لمبدأ حرية العقيدة وإنه لا يوجد مكان للتراجع للخلف وإلغاء هذا الحق، لكن يجب المطالبة بمبدأ المعاملة بالمثل في العربية السعودية وفي كل مكان أين المسيحيين محرومين من حرية العبادة» [2].

هذه بعض الحقوق التي تحققت من خلال قرارات مؤتمرات الحوار، وعموما ركز هنري تيسيي على مبدأ المعاملة بالمثل حيث يقول:

«بلدان الدين المسيحي عليها باحترام حرية الغير، بالنسبة للغربيين الذين أسلموا **، لكن يجب التأكيد على نفس الحرية التي يجب أن يُعترف بها للمتحولين من أصل مسلم» [3].

وعموما مهما كانت نتائج الحوار نسبية تتراوح بين الإيجاب والسلب، فإن ما تحقق للطرف المسيحي يعد إيجابيا ودافعا للأمام وكما قال كوربون صاحب النظرة الأكثر تفاؤلا وثقة في الحوار: «إن الكنائس المسيحية التزمت طريقا جديدا يتمثل في الالتقاء والحوار مع المجتمع الإسلامي... ومهما كانت النتائج فإنهم غيروا النظرة والتعامل اتجاه المسلمين داخل المجتمعات» [6] الغربية على العموم.

وعموما أغلب المسيحيين راضيين بما تحقق لكن ترى كيف هو الحال بالنسبة للمسلمين؟

*. قد يكون ذلك صحيحا، لكنه تجاهل المنشورات الغربية ضد الإسلام ورسوله التي لا تعد.

1. Ibid., p.99

2. Ibid., p.102

**. جارودي مثلا منذ إشهاره بالإسلام، وهو تعرض لمضايقات وحملات تشهير ومقاطعة من دور النشر حتى أوصله الأمر إلى المحاكمة.

3. Ibid., p.103

1. Jean Corbon : Le dialogue Islamo chrétien dans la conjoncture du monde chrétien, p.181

من خلال الكلام السابق المسلمون استفادوا من بعض الأمور، «فبفضل هذه الجهود أنشئت أماكن العبادة للمهاجرين المسلمين ومهام عديدة قامت بها الكنيسة الكاثوليكية، بل ولادة دورية إسلاميات مسيحيات (Islamo-christiana) بروما عام 1975 تعد مبادرة كبرى»[1] وهي فعلا كذلك، هذه الدورية تمد العالمين الإسلامي والمسيحي بكتابات جادة ومتنوعة فيما يتصل بالدين الإسلامي والمسيحي، تنشر مقالات بمختلف اللغات ومن مختلف المفكرين الملتزمين بالحوار والتسامح الديني، وهذا أمر إيجابي لا يمكن إنكاره، كذلك ظهرت مؤلفات منصفة حول الإسلام والرسول ﷺ تحت تأثير موجة الحوار.

كذلك من آثار الحوار التي وقف عليها المحاور المسلم، ما لاحظه من محاولات استغلاله كعملية تبشيرية من طرف بعض المسيحيين ونسجل في هذا المقام ما ذكر بوهديبة أن «الدفاع عن المسيحية (L'apologétique) الزائد غير ضروري وغير مجد، لأنه قلما يسمح بالتعمق في الإشكالات، إنه يضرب بالأخلاق ويخلق حواجز للحوار، أعتقد من جهتي أنه شكل زيادة في حجم القلق والحيرة وجها لوجه مع بعضهم البعض، شك خانق. إنه يزيد من إقناع نفسه! بدلا من إقناع الآخر، لذا يجب التصريح بذلك، فإذا كان الميل التقليدي يتجه بسهولة نحو الدفاع عن المسيحية، الميل الحداثي من السهل أن يقع في الفخ من طرف المفاهيم القبلية لأعمال -المستشرقين، واحسرتاه!- والتي يستغلها كمصادر أو من طرف مفكرين مسيحيين، أو غير ذلك وفي كل الأحوال أسباب غربية وغالبا أوربية، مركزية والتي يستخدمها كقاعدة»[2]، لأن الميل الحداثي الرافض للأديان بما فيها الإسلام في النهاية هو ذو منبت غربي مهما كان تأثيره كما أكده صاحب المقال.

1. Jean Corbon, Op. Cit., p.180
2. Ibid, p.92

خلاصة

إن ما يحدث في الوقت الراهن من تبشير ودعوة و تفاعلات وتناقضات وحوارات.. ومن مد وجزر بين المسيحيين والمسلمين، ما هو إلا امتداد لما حدث في الماضي البعيد، رغم اختلاف الظرف الراهن بمعطيات كثيرة عن الظروف الماضية التي سادت بين الإسلام والمسيحية.

فالماضي عرف جدلا لاهوتيا ودفاعا مستميتا عن الدين، كما عرف تسامحا وتعايشا، إلى جانب فترات عصيبة من الحروب والآلام والتعصب الأعمى، فكذلك التاريخ الحديث والمعاصر عرف ويعرف كل هذه الأحداث بتناقضاتها بين الحرب والسلم... لكن الملفت للانتباه أن صيحات الحوار والتسامح التي ترددت كثيرا -ربما بسبب تزايد العنف والتعصب الديني-، من خلال دعاوى هيئات وشخصيات مسيحية غربية، الحوار منطلق رغم ممارسة بعض أنصاره للتبشير، وهو أمر لا ينكر وتجب مواجهته، للحوار أنصاره المخلصون، أصحاب الأهداف النبيلة كذلك هناك من يتخفى وراءه لتحقيق أهداف رذيلة على رأسها التبشير وضرب استقرار مجتمعاتنا الإسلامية ، الأمر الذي جعل البعض يرفضه جملة وتفصيلا تفاديا لكل التباس.

لكن تبقى القناعات الفكرية العقدية هي مرجعية كل قرار وكل تصرف يصدر عن المسيحي أو المسلم والذي يقصد من ورائه إثارة الحساسيات الدينية أو تهذيبها والسمو بها نحو التسامح والتقارب، وهذا ما يرجوه كل مؤمن مخلص لإيمانه. لأن التعصب الديني الأعمى لا أحد يأمن عواقبه الوخيمة حتى بين أبناء الدين الواحد -وحالنا يبكي-، فما بالك بين ديانتين مختلفتين، لهذا يبقى الحوار من سبل التسامح، إذا كان حوارا حقيقيا فعالا منزّها عن كل تمويه أو غش.

على مستوانا كأفراد أو جماعات ننتمي إلى الإسلام، فإن المسؤولية تتضاعف لإيماننا ووعينا بحجم وعظمة الإسلام والتراكمات التاريخية

والالتزامات الحضارية والتحديات المعاصرة، علينا العمل الكثير للحفاظ على ديننا واسترجاع قوته، فاللحاق بالركب الحضاري يتشرط العمل ثم العمل، لكن وفق عقلانية وكفاءة تعيدان الأمور إلى نصابها وبالإمكان تحقيق ذلك إذا اقتنع جمهور المسلمين أن قدر الإسلام أن يكون جسرا بين الشرق والغرب، وأن المسلمين هم الأمة الوسط المستخلفة في الأرض والتي يجب أن تساهم في البناء الحضاري الإنساني وأختم بقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾